الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
جولة في كتاب الطبّ الإسلامي

مؤلّف هذا الكتاب هو العالم اللغوي الألماني انغريد أولمان، وناقله إلى اللغة العربية هو الدكتور يوسف الكيلاني. المؤلف فيما يبدو لنا متخصّص في الدراسات اللغوية التاريخية لكلّ مادة الكتاب الذي أخرجه، وهي مادة الطبّ الإسلامي، التي شدّت اهتمامه فراح يتعرّف إليها تحقيقاً ودراسة ومقارنة وكشفاً عن الأصالة التي تتميّز بها. فإذا به يُخرج إلى القارىء الأوروبي دراسة هي خير ما وضع من دراسات حتى اليوم حول علوم الطب الإسلامي.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ونُشر على أنّه الجزء الحادي عشر من سلسلة " الدراسات الإسلامية " التي يشرف عليها الدكتور مونتجومري وط. وقد أدخلت هذه الدراسة في صلب السلسلة هذه لأنّه كما يقول المشرف المصنّف الأستاذ (وط) لا يوجد كتاب حديث عن هذا الموضوع في أيّ من اللغات الأوروبية.

وكما تمّ اعتماد هذا المؤلَّف الألماني في سلسلة تصدر باللغة الانجليزية بعنوان " دراسات إسلامية"، فقد أقدم صديقنا الدكتور يوسف الكيلاني وهو استشاري الغدد الصمّاء ورئيس وحدة الأمراض الباطنية في مستشفى الصباح في الكويت على دراسة هذا المؤلَّف حتى إذا وجد فيه ما يثير الانتباه ويلفت النظر وتبيّن فيه جوانب بالغة الأهمية في مادة الطب الإسلامي قرر نقله إلى اللغة العربية. وقد ساعده على حسن تقييم هذا الكتاب أنّه- أي الدكتور الكيلاني- منصرف إلى دراسة العلوم الإسلامية في الطب منذ خمسة عشر عاماً تقريباً فأصبح بذلك واحداً من الباحثين في هذا الميدان التراثي.

والواقع أنّ ترجمة كتاب " الطب الإسلامي " ليست ممّا يسهل تصوره، فهوعمل لغوي فني علمي يحتاج إلى هيمنة أساسية على مادة الكتاب وخبرة في التعامل مع مصطلحاته وقضاياه ونظرياته. وقد

احتاج المترجم إلى عامين كاملين على الأقل لإنجاز مهمته، لا لضخامة الكتاب بل للدقّة التي تقتضيها هذه الترجمة.

وقد لجأ الدكتور الكيلاني إلى كثير من المراجع القديمة والحديثة بحثاً عن أدقّ الاصطلاحات اللغوية العلمية، كما استعان بخبرته كطبيب لوضع ما لم يجد له قريناً في اللغة العربية من الاصطلاحات الانجليزية.

ورغبة منه في إخراج كتابه على الصورة التي لا ترضي القارىء العادي وحسب بل تعجب الخبير المختصّ أيضاً فقد استعان ببعض المتخصّصين من أصدقائه ووضع مسودة الكتاب بين أيديهم أملاً منه في أن يخرج عمله على خير صورة ممكنة كما جاء في بعض مقدّمته التي صدّر بها الترجمة العربية.

****

والجدير بالذكر أنّ التأريخ لمادة الطب الإسلامي ليس جهداً علمياً فردياً منقطعاً عن خطة فكرية شاملة، ذلك لأنّ الطب الإسلامي يتميّز بمنهج خاص في تشخيص الأمراض واختيار أنواع الأدوية المناسبة لها.

وقد أشار المترجم في مقدّمته إلى هذه الظاهرة حين قال " وفي نظري أنّ أهمية هذا الكتاب تكمن في الفصل الرابع والفصول التي تليه، ففي الفصل الرابع تفسير لنظرية الأخلاط الأربعة اليونانية الأصل والتي مارس العرب طبّهم بمقتضاها بكل نجاح على مدى عدة قرون. وفهم هذه النظرية أمر ضروري جداً لأطباء عصرنا وكلّ المهتمّين بدراسة التراث الهائل من مخطوطات الطبّ الإسلامي التي لم تمسسها يد الباحثين بعد. فبدون فهم لهذه النظرية المتكاملة نظرياً ومنطقياً والمختلفة كلياً عن مفاهيمنا الطبية الحديثة لا يمكن تقييم التراث الطبي الإسلامي تاريخياً أو إحياء ما يمكن أن يستفاد منه عملياً في وقتنا الحاضر إلخ...

****

على أنّ هذا الرأي الذي أدلى به مترجم الكتاب إلى العربية الدكتور يوسف الكيلاني لم ينفرد به، بل وقف فيه إلى جانبه عدد كبير من الأخصائيّين المهتمين بالطبّ الإسلامي باعتباره مدرسة علمية قائمة بذاتها ذات منهج متميّز ومطابقة متميّزة في اختيار أنواع الأدوية المطلوبة. وفي مقدّمة القائلين بإحياء نظرية

الطبّ الإسلامي وحسن الإفادة منها عملياً أفراد اللجنة الهندية التي كُلفت بوضع تقرير عن أبعاد الطب الإسلامي وفاعليته من قِبل وزير الصحة الكويتي. ولعلّ هذا التقرير والمواقف الإيجابية التي سُجّلت فيه لجهة ممارسة الطبّ الإسلامي أن تكون عاملاً من العوامل التي شجّعت وزارة الصحة الكويتية على الاهتمام الجدّي ببعث هذا العلم وإحياء ما درس منه وعقد مؤتمر علمي للطبّ الإسلامي وجّهت له الدعوة إلى أبرز العلماء ذوي العلاقة من كل أقطار الأرض. وتمّ هذا اللقاء فعلاً كما يذكر القرّاء في النصف الأول من شهر يناير لهذا العام ١٩٨١.

وقد لا يخلو من الفائدة أن نورد بعض ما سجّله أصحاب التقرير حول الطبّ الإسلامي وحول الآمال العريضة التي يبنونها عليه :

١) جاء في التقرير أنّ عشرات من المؤسّسات العلمية الطبية في الهند مختصّة بدراسة الطبّ الإسلامي بخاصة والطبّ الشعبي التقليدي بعامة . ففيها كما يقول أصحاب التقرير ٣٧ كلية جامعية ، ١٤٠٠٠ مستوصف ، ٢١٥ مستشفى ، ٣٠٠ صناعة ذات علاقة بنظام الطبّ الإسلامي التقليدي. كلّ هذه المؤسّسات تستعين بأساليب الطبابة الإسلامية والتقليدية في معالجة المرضى وتشخيص الأمراض.

٢) وفي التقرير ذكر للندوات الدراسية التي تعقدها منظمة الصحة العالمية من بينها الندوة الدراسية التي عقدت في كولومبو سيريلانكا.

٣) أورد التقرير شهادات عدد كبير من الأخصائيين في مادة الطبّ الإسلامي منهم الأستاذ (مزّمل صديقي) رئيس دائرة الشؤون الإسلامية لرابطة العالم الإسلامي من نيويورك، ومنهم دون ذكر الألقاب والميادين التي يعملون فيها:

١) الأستاذ سامي حمارنه.

٢) الدكتور غويد وفيش.

٣) الأستاذ الجراح موكترجي.

٤) الدكتور نارستنج راه.

٥) الأستاذ خالد البط.

٦) الأستاذ راما لنغا سوامي.

٧) الأستاذ أغاروال.

٨) الأستاذ ساتيا نامن.

٩) الأستاذ المساعد ر.م نظامي.

١٠) الدكتور ج . م يحيى.

وغير هؤلاء كثيرون ممّن لهم الباع والخبرة الواسعة في ميادين الطبّ والصيدلة.

٤) ويتحدّث التقرير أيضاً عن الاتّجاهات العلمية الحديثة في الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية إلى الاستعانة بأساليب الطبابة الإسلامية وإن لم يشر أصحاب العلاقة من الدارسين إلى المصادر التي يلجأون إليها.

٥) والجديد بالذكر أنّ التقرير نفسه يذكر بعض الأمراض والمعضلات الطبية التي يعتقد الإختصاصيون أنّ في وسعهم التوصّل إلى حلول أو اكتشافات أدوية لها في ميدان الطبّ الإسلامي،ومن بين هذه الأمراض:

١) ضغط الدم.

٢) أمراض القلب.

٣) الأمراض المزمنة للكبد ومنها تشمع الكبد.

٤) تشمّع الكبد عند الأطفال.

٥) إلتهاب القولون المزمن غير النوعي.

٦) عسر الهضم الوظيفي.

٧) الاضطرابات العائلية الوراثية.

٨) الأمراض الجلدية بما فيها مرض الصدفية.

٩) الصلع والوقاية منه.

١٠) الاضطرابات النفسية.

وهناك سلسلة أمراض أخرى أوردها التقرير على لسان بعض الأخصائيين في هذا الميدان يُرجع إليها في التقرير المشار إليه أعلاه.

وإنّنا لنتمنّى على المسؤولين في وزارة الصحة الكويتية اتخاذ الإجراءات اللازمة لترجمة هذا التقرير إلى اللغة العربية تعميماً للفائدة وتدعيماً للخطة التي التزمت لها الوزارة بإنشاء مركز الدراسات الطبيعة والصيدلية الإسلامية.

****

كلّ هذه الاقتراحات والشهادات العلمية الصادرة بشأن إحياء الطبّ الإسلامي أو ما يمكن أن يصلح منه لبناء طبيّ متفرّد بمنهجية أسلوبه ، دفعت صديقنا الدكتور يوسف الكيلاني أن ينقل كتابه " الطبّ الإسلامي " من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية وهي كلّها دعامة يمكن أن يرتفع فوقها بنيان علمي طبي ساحق.

على أنّ ترجمة كتاب " الطبّ الإسلامي " لا توفّر الظروف المناسبة للاطّلاع على الخطوط الرئيسية للمعالجة والوقاية وحسب، ولكنّها يمكن أن تكون منطلقاً لتحرير هذا الطبّ من العقلية السحرية التي بقيت لها آثارها في نشاط الأطباء المسلمين.

وقد تناول الكتاب المذكور- في الفصل الثامن والأخير- ظاهرة العلاقة بين الطبّ والسحر، ويتحدّث المؤلف عن الصبغة الحضارية العلمية التي جابهت الطبّ الشعبي الذي كان سائداً في عالم ما قبل الإسلام بنظام من الطبّ العلمي بالغ التطوّر تمّ به تحريم السحر فيه.

ومفهوم السحر هنا كما جرى تعريفه في هامش الصفحة ١٧٩ يتناول القوى الغيبية التي تؤثر عن بعد سواء كانت حجراً أو حيواناً أو نباتاً أو نجوماً، فهي ليست السحر بالمعنى التقليدي الشعبي الشائع والذي يتّصل بتغيير قوانين الطبيعة بقوى غامضة خفيّة.

على أنّ هذا النظام العلمي رغم التحوّلات التي حقّقها لم يستطع أن يحرّر الطب اليوناني القديم نهائياً من ربط الأدوية الطبيعية بالعلاجات السحرية. كلّ ذلك لأنّ جالينوس مثلاً وهو من أشهر الأطباء اليونانيين، كان يعتبر أنّ الفرضيات أهمّ من التجربة الواقعية .

هذا الموقف تبنّاه كثير من الأطباء العرب كما جاء في (ص ١٨٠) من الترجمة العربية. ومن أبرز الكتب التي تناولت تأثير التعاويذ والعزائم والعلاجات السحرية كتاب " فردوس الحكمة " لعلي بن سهيل الطبري.

وممّا جاء في كتاب الطبري قوله على سبيل المثال : إذا وضعت حجر مغناطيس في يد امرأة أثناء المخاض فإنّ هذا سيساعدها في حالة الولادة العسرة. ويقول أيضاً : "رأيت مرة حجراً هندياً مربوطاً إلى بطن رجل مصاب بالاستسقاء وكان الحجر يسحب ماء الاستسقاء منه "، وهناك مثال يقول " إذا كانت امرأة مرّة حاملاً ثمّ لم يعاودها الحمل بعد ذلك فعليها أن تلتقط ضفدعاً من النهر وتبصق في فمها ثم تلقي بها إلى النهر ثانية فإذا جامعها زوجها بعد ذلك حملت منه بإذن الله.

ولو شئنا أن نقيس الشواهد على هذه القاعدة التي يرتبط بها العلاج الطبيعي بالعلاج السحري لوجدنا الشيء الكثير ممّا لا تتّسع له هذه المقالة.

أما الطبّ الإسلامي والتنجيم فقد كانت بينهما علاقة وطيدة كما جاء في الفصل الثامن نفسه. يقول المؤلف في (ص ١٤٨) من الترجمة العربية : كان موقف الأطباء المسلمين من علم التنجيم متنوعاً

كتنـوّع علاقـتهم بالسـحر، فكثـير مـن أطبـائهم كـانوا منجّمـين مثـل يحـي بـن جريـر التكـريتي (حـوالي عـام ١٠٣٠ مـيلادي) أو علـي بـن رضـوان (تـوفي سـنة ١٠٦٨ ميلاديـة) والـذي حقّـق لنفسـه شـهرة بشـروحه على(رباعيـة بطليمـوس) والفيلسـوف يعقـوب بـن اسـحق الكنـدي والـذي نشـر العديـد مـن الأعمـال الطبيـة وكتب أيضاً رسالة عن الأبراج الفلكية وارتباطها بالطب.

ويبـدو أنّ الأطبـاء المنجّمـين مـن المسـلمين قـد اسـتندوا إلى كتـاب أبقـراط الـذي يخـبرنا كيـف أنّ علـم النجـوم لا يقتصـر علـى القيـام بخدمـة صـغيرة للطـبّ لكنـه بالفعـل يقـوم بخدمـة كبـيرة جـداً، (ص ١٨٥) مـن الترجمة العربية.

ويـبرّر أبقـراط هـذا الـرأي بقولـه " ذلـك لأنّ التغـيّرات في تجويـف جسـم الإنسـان تنطبـق في بعـض الأوقـات على تغيّر فصول السنة".

هكـذا تبـيّن لنـا أنّ إحيـاء الطـبّ الإسـلامي في ضـوء الانجـازات العلميـة الحديثـة يمكـن أن يحقّـق إنجـازاً طبيـاً متحـرّراً تمامـاً مـن بقـايا العقليـة السـحرية القديمـة يجعـل التجربـة الواقعيـة وسـيلة وحيـدة أو أساسـيّة لمواجهـة المشكلات المرضية المختلفة.

وخلاصـة القـول أنّ الخدمـة الـتي حققتهـا ترجمـة كتـاب " الطـبّ الإسـلامي " لم تقتصـر علـى ربـط الاتجاهـات الطبيـة الحديثـة بجانـب مـن جوانـب الـتراث العلمـي الإسـلامي، لكنّهـا في الوقـت نفسـه تطـرح أمـام التجربـة منهجـاً آخـر في مواجهـة الجسـم الإنسـاني غـير المـنهج الـذي اتّخـذه الطـبّ المتعـارف عليـه في هـذا العصـر ممّـا يحقّـق نقلـة نوعيـة كبـيرة للـتراث الإسـلامي كمـا يحقّـق نوعـاً مـن الاسـتمرارية للإنجـازات الطبيـة الإسـلامية القديمـة، تلـك الـتي تثبـت التجربـة الهنديـة فاعليتهـا وقـدرتها علـى مواجهـة التفكـير العلمـي الحـديث بفضل المؤسّسات الكبيرة التي لا يزال العمل فيها قائماً حتى اليوم على الصورة القديمة.

يبقـى أن نقـرّر بأنّ مجهـود المـترجم لا يقـلّ في الحقيقـة عـن مجهـود المؤلـف في مثـل هـذه الدراسـات وإن اختلـف الميـدان الـذي يعمـل فيـه كـلّ منهمـا. كمـا لا يسـعنا ألّا أن نهـنّىء المـترجم علـى توفيقـه في إخـراج هـذا

الكتاب الذي اعتمدته وزارة الصحة الكويتية وتبنّت توزيع عدد كبير من نسخه على العلماء المشاركين في المؤتمر الإسلامي العالمي للطبّ الذي انعقد بين ١٣ ، ١٦ من شهر يناير من عام ١٩٨١.